هدف المحاضرة الثانية:

الهدف من هذه المحاضرة تعريف الطالب على الأوضاع الثقافية للجزائر في أواخر العهد الزياني وكذا الاطلاع على أهم الحواضر الثقافية في الجزائر.

المحاضرة الثانية:

الأوضاع الثقافية للمغرب الأوسط في أواخر العهد الزياني:

شهدت تلمسان عاصمة الزيانيين حركه ثقافية وعلمية نشطه، ففي العهد الزياني أصبحت تلمسان من أهم الحواضر العلمية والثقافية في العالم الإسلامي، فقد شجع حكام بني زيان على غرار أسلافهم الموحدين الحركة الثقافية والعلمية، واحتفوا بأهل العلم والأدب، وجعلوا من تلمسان مركز استقطاب للمفكرين من شتى بلاد الإسلام، خصوصا من المهاجرين الأندلسيين الذين فروا من بلادهم يسبب البطش المسيحي، حاملين معهم علومهم وآدابهم وقد سجل هذا الازدهار في مظاهر علميه وثقافيه متعددة منها كثرة مراكز التعليم من مساجد ومدارس وزوايا، وكثره العلماء بالمدينة، وظهور الكثير من المؤلفات التي تنوعت بين علوم نقلية وأخرى عقلية تتضمن جل العلوم والفنون المعروفة في تلك الفترة، وكان لهذا النشاط تأثير وإشعاع ثقافي كبير ليس على تلمسان فحسب بل امتد ليشمل المغرب والأندلس.(المشهداني، 2013، ص) 447

وكان التعليم منتشرا في المدن والقرى، حيث يتعلم الطلاب في المرحلة الأولى القراءة والكتابة وحفظ أجزاء من القران الكريم وتجويده، ويكون ذلك في الكتاتيب وبعض الزوايا ويكون الطلبة غالبا من صغار السن حيث يتلون القران الكريم بصوت واحد، وفي مرحله متقدمة يدرس الطلبة علوم النحو واللغة والفقه والأدب، فيحققون مستوى لائق يمكنهم من معرفة دينهم والإلمام باللغة العربية، وعدد الطلبة فيها يقلعنه في المرحلة السابقة، وفي مرحله ثالثه يركز الطلبة على فرع معين من العلوم والآداب بمزيد من التوسع

والتعمق والتفصيل،وتكون الدراسة في هذه المرحلة في المدارس أو المساجد المشهورة كالمسجد الأعظم بتلمسان، ويقل عدد الطلبة عن المرحلة السابقة أما سن الطالب فيكون في حدود ال 20 عاما، وبعد الانتهاء من هذه المرحلة التي تستمر حوالي عشره أعوام يطوف الطلاب البلاد للقاء العلماء المشهورين، وكثير منهم يرتحل إلى أقطار المغرب الأخرى والمشرق، فيوسع مداركه العلمية ويتعمق فيها، وقد يشتغل هناك بالتعليم أو بمناصب أخرى، فتأثرت بذلك الحياة الفكرية إلى مدى بعيد بفضل هذا الاحتكاك مع علماء الأقطار الإسلامية الأخرى.(قيبوج، 2019، ص 34)

أما نظم التدريس فكانت على نوعين من التعليم النوع الأول حكومي ويسمى كذلك التعليم الرسمي، وهو التعليم الذي تأخذ فيه الدولة على عاتقها بناء المدارس وتعيين المدرسين وتحديد أجور المدرسين وعطاءات الطلاب، وفي هذا النظام التعليمي تقوم الدولة بتدريس المضامين والمذاهب التي تريدها، وتهتم بهذا النوع من التعليم لتكوين وتخريج موظفين لها.

وتذكر المصادر خمسة مدارس كبرى بتلمسان أنشاها الحكام الزيانيون والمرينيون بداية بالسلطان أبي حمو الأول(718هـ) الذي انشأ مدرسة أولاد الإمام يوسف بن يعقوب وهما العالمان الجليلان أبو زيد وأبو موسى ووضعهما للتدريس فيها وأقام إيوانين معدين للتدريس، بجانبهما دارين لسكن ابني الإمام، ومساكن للطلبة، وفي عهد السلطان أبي تشوفين الأول(737هـ) لم تعد مدرسه أولاد الإمام تفي بالغرض لتزايد أعداد الطلبة، فإنشاء السلطان مدرسة جديدة سماها المدرسة التشفينية قرب المسجد الأعظم،وعين أفضل العلماء للتدريس بها منهم العالم الفاضل موسى المشدالي، وأقر للمدرسين والطلبة رواتب وانشأ السلطان أبو عنان المريني سنة (547) مدرسه عند ضريح الولي أبي عبد الله الشوذي الاشبيلي الملقب بالحلوي، وأقام السلطان أبو حمو موسى الثاني المدرسة اليعقوبية نسبة إلى والده أبي يعقوب يوسف سنة (765هـ) وجلب لها أشهر المدرسين وعلى رأسهم العالم الجليل الشيخ الشريف التلمساني، كما أنشاء السلطان أبو العباس أحمد العاقل سنة (650هـ) المدرسة الجديدة بتلمسان وعين لها الأوقاف والأحباس، وهكذا كانت

تلمسان في عهد أبي حمو الثاني بفضل مدارسها الخمس ومسجدها الأعظم مركزا ثقافيا هاما وبلد إشعاع علمي يضاهي أهم المراكز الثقافية في بلاد المغرب الإسلامي.

أما التعليم الحر فكان يتم دون تدخل الدولة أو تكون سيطرتها عليه قليلة،ويكون عادة داخل الزوايا وقرب قبور الأولياء وبعض المساجد، وابتعاد هذا النوع من التعليم عن سلطة الدولة جعله أوسع مجالا وأكثر معرفه بالمذاهب والفرق من النوع الأول.

وكانت العلوم التي يتم تدريسها في تلمسان في تلك الحقبة التي تشمل كل العلوم المعروفة في ذلك الوقت، وكان إقبال الطلبة كبيرا على شتى صنوف العلم والمعرفة، ويمكن تصنيف هذه العلوم إلى ثلاثة أقسام كبرى هي: العلوم الدينية المستندة إلى الشرع المأخوذة من الكتاب والسنة، والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ثم العلوم العقلية والطبيعية.(قيبوج، 2019، ص 41)

الحياة الثقافية في الفترة العثمانية:

عرفت الحياة الثقافية في الفترة العثمانية (16م إلى 19م) استقرارا ملحوظا وحافظت على رتابة النشاط العلمي والثقافي الذي عرفت به قبل الوجود العثماني، واستمرت على الحفاظ على ذلك المظهر الثقافي خلال فترة حكم العثمانيين الذي دام ثلاثة قرون عرفت الجزائر خلالها أوضاعا سياسية واقتصادية واجتماعية غير مستقرة أثرت على الوضع الثقافي في الجزائر، أطلق على هذه المرحلة من تاريخ الجزائر الثقافي اسم مرحلة الاستقرار الثقافي، في الوقت الذي أطلق عليها بعض الباحثين في التاريخ مرحلة الانحطاط الثقافي أو التدهور الثقافي أو ما شابه من هذه المصطلحات التي تحمل الحكم العثماني السبب في ذلك الوضع، بينما الأمر ليس كذلك فالغزو الإسباني الذي حل بالجزائر دفع الكثير من علماء الجزائر للهروب منها واللجوء إلى بلدان الجوار تونس والمغرب ، كذلك انحسار العلوم الدينية والعلمية في عائلات معينة وزهد المجتمع الجزائري في تحصيل وطلب العلم(عائلة ابن مرزوق، والمقرى والعقباني بتلمسان وأسرة بن باديس وابن قنفذ والفكونبتلمسان وأسرة المشدالي والغبريني في بجاية)، بينما وحد العثمانيون

الدولة الجزائرية تحت عاصمة واحدة ونظام سياسي موحد بعدما كانت مقسمة إلى ناحيتين ناحية شرقية حفصية والأخرى غربية زيانية.

سمح الأتراك كذلك بالهجرات الأندلسية وقاموا بحمايتهم من الإسبان وعملوا على توطينهم في الجزائر، وهذا ما جعل الجزائر تنال حظها مرة أخرى من الثقافة الأندلسية مثل الذي عرفتها من قبل أثناء هجرتهم الأولى عند سقوط الأندلس.

وأهم شيء أن الأتراك تحكموا في المظهر السياسي والاقتصادي بينما تركوا الحرية في التعليم والتعاليم المذهبية والدليل أن اللغة التركية لم تؤثر في اللسان الجزائري وكذلك بقاء المذهب المالكي هو المذهب الغالب الذي ألتزم به المجتمع، بالرغم أن الأتراك كانوا على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، ولم يساهم الأتراك في نشر مذهبهم، بل بقى محصورا في الحواضر التي يسكنها الأتراك بكثرة وقاموا بتعيين المفتي المالكي بجوار المفتي الحنفي، ومنحوا له سلطات واسعة عند أداء وظيفته.

لا أحد ينفي أن الحركة الثقافية كانت تتمركز في ثلاثة حواضر وهي قسنطينة وتلمسان والجزائر العاصمة وكانت هذه الحواضر تعد حقا مراكز إشعاع ثقافي وفكري ازدهت فيها العلوم والفنون لعدة قرون. (مسعود، 1980، ص 58)

لكن هذه الحركة الثقافية تقليدية صوفية أهملت العلوم الفقهية والأدبية والعلمية وهذا بسبب الانتشار الواسع للطرق الصوفية والزوايا المرابطية والأضرحة والمبالغة في اعتقاد الشيخ وابتداع الحضرة والأوراد، وهذا ما سبب تبسيط المعرفة وغلق باب الاجتهاد والاكتفاء بالحد الأدنى من التعليم وأصبحت الزاوية المرابطية (الصوفية) تنافس الجامع والمدارس القرآنية، وبالرغم من ذلك لم تكن الجزائر تخلو من التعليم، فالأتراك عند دخولهم للجزائر وجدوا قاعدة تعليمية جيدة عند الحفصيين في الشرق أو عند الزيانيين في الغرب، فالتعليم كان منتشرا بجميع مستوياته في المدارس والمساجد وفي الزوايا وكانت جلسات

التدريس حول كل أستاذ مشهور تعقد في المدارس أو الجامع أو الزاوية ويلتف حوله التلاميذ لتحصيل علوم الدين واللغة والمباحث الفرعية الفقهية على مذهب الإمام مالك(سعد الله،1998، ص 46)

لا ننسى أن الأوضاع المتدهورة التي عرفتها الجزائر في هذه الفترة هي نفس الأوضاع المضطربة التي عرفتها بلدان العالم الإسلامي كله وبالتالي ما على الجزائر إلا أن تستند لرصيدها الثقافي والعالمي الذي خلفته سياسات الدول السابقة التي عرفت ازدهارا علميا كبيرا كما سبق ذكر ذلك فيما سبق.

يرجع الاستناد أبو القاسم سعد الله (رحمه الله) عدم اهتمام الأتراك بالحركة الثقافية إلى الاغتراب اللساني (اللغة) والاغتراب التاريخي، فمن غير الممكن أن يتجرأ الأتراك على إبدال لغة القرآن بلغتهم، بل بالعكس فهم يتنافسون لتعلم اللغة العربية التي تسمح لهم بقراءة القرآن وفهمه أما الاغتراب التاريخي فالأتراك يشعرون بالرابط الديني الذي هو أقوى من الرابط الزماني والمكاني.(سعد الله،1998، ص 85)